تجديد الخطاب الابستيمولوجي عند ميشال سير

بوغالم جمال ، أستاذ مساعد –أ– وهران

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية . جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف

تحت إشراف أ.د.دراس شهرزاد

المقدمة

شهد الخطاب الابستمولوجي تحولاً كبيرًا من النشأة إلى الفترة الراهنة، تزامنًا مع الطَّفرة النوعية التي عرَفتها الموجة المعلوماتية والتكنولوجية، مما أدَّى إلى تغيير الخطاب التقليدي للابستمولوجيا، وذلك بالانتقالِ مِن البحث في نظرية المعرفة وما رافقها من ثنائيات تقليدية، إلى تبنى خطاب تجديدي، ارتسمت معالمه مع غير واحد من فلاسفة العلم المعاصرين. ميشال سير(*)واحد من أولئك الذين رسموا حدودا جديدة للابستمولوجيا المعاصرة. فما هي مهام وأهداف الابستمولوجيا في نظر ميشال سير؟ وما هي خصائصها التجديدية؟.

تعد الابستمولوجيا المشهد الفلسفي الذي يعكس التحولات العلمية في البناء المعرفي. وهي المقياس الذي يكشف عن انتماء البناء الفلسفي إلى روح العصر من عدمه. إن النقد الابستمولوجي يستهدف قضايا معرفية ومنهجية ترتبط بالتفكير العلمي بالدرجة الأولى. فيتساءل عن موضوع العلم ومنهجه، ويبحث في مبادئه، ومفاهيمه، كما يقارب تاريخيته قاصداً كشف آلياتها. ومن ثم كانت العلوم الحقة من رياضيات وفيزياء وكيمياء وبيولوجيا المجال المفضل للاشتغال الابستمولوجي.

وتميزت الابستمولوجيا المعاصرة في إطارها الفلسفي بتنوع مدارسها الفلسفية، فمثلاً، كانت هناك مساهمة ابستمولوجية للوضعية المنطقية، تبلورت مع موريس شيلك في مؤلفه المعنون بـ : "الابستمولوجيا والفيزياء الحديثة" الصادر سنة 1925. وألحقه بكتاب أخر عنوانه : " النظرية العامة للمعرفة". واستندت ابستمولوجيا الوضعية المنطقية إلى معيار المعنى الذي يعود في أصوله إلى الكتابات المبكرة للفيلسوف التحليلي لودفيغ فيتجنشتاين في كتابه رسالة منطقية — فلسفية.

الموجة التجديدية الثانية نرصدها مع الفيلسوف والابستمولوجي الفرنسي غاستون باشلار الذي أعلن عن ميلاد روح علمية جديدة ساهم في رسم عدتها المفاهيمية، من عقلانية تطبيقية وقطيعة ابستيمولوجية وفلسفة الرفض ومبدأ الاحتمال. ولعل ما كان يرمي إليه صاحبها هو محاولة إقامة نظرة فلسفية جديدة، أو لنقل فلسفة مفتوحة تتجاوز المفاهيم الفلسفية التقليدية. واشتغل على تأسيس خطاب ابستيمولوجي حول العلم والتشريع للفلسفة، ليس لتحقيق أغراضها وبناء أنساقها، وإنما بتوظيف المناهج والنتائج العلمية للتساؤل عن شروط إمكان المعرفة العلمية. وجعل نتائج العلم حقلا للتفلسف، والسعي لتدارك النقائص والثغرات التي تعاني منها الفلسفات التقليدية. تلك هي أبرز الوظائف الأساسية لفلسفة العلم من منظور فيلسوف القطيعة. وتوجت محاولته بنتائج تؤسس لخطاب فلسفي نقدي للعلوم يرصد الصعوبات ويرسم خطوط التباين والتمايز بين العلمي واللاعلمي. واستخلص الدرس العلمي المعاصر في نتيجة مفادها أن القطيعة الابستمولوجية التي حدثت في العلم ينبغي أن تحدث في الفلسفة كذلك، لأن لكل علم فلسفة يفرزها.

وتندرج محاولة ميشال سير، كأحد الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين، ضمن سياق الدعوة إلى تجديد الخطاب الابستمولوجي المعاصر. لكن مشروعه التجديدي ليس نسخا للدعوات السالفة، حتى وإن كانت غايتها واحدة، وهي قيام ابستمولوجيا تؤسس لعلاقة متجددة بين الفلسفة والعلم. فباشلار مثلا في نظر ميشيل سير كان متأخرا عن علوم القرن الواحد والعشرين ونظرياته الجديدة والمتجددة(**). حيث أصبح الحديث عن العلم ومن ثم الابستمولوجيا، في الفلسفة المعاصرة، ضرورة، ليس باعتبار الفلسفة متطفلة وناقلة، ولكن لأنه يبرز ارتباط الفيلسوف بالعلم كممثل للسلطة المعرفية في العصر الحاضر. ويمكن القول إن الابستمولوجيا السيرية هي محاولة تجديدية للابستمولوجيا التقليدية، وتجاوزا لنظيرتها الباشلارية وجعلها متماشية مع العلوم المعاصرة. فكيف ذلك؟

1/ علاقة الفلسفة بالعلم

الحديث عن الابستمولوجيا من وجهة نظر سير يمر عبر الحديث عن علاقة الفلسفة بالعلم، فهو يحكم بوجوب العلاقة بينهما، لكن مع ضرورة الفصل والاستقلالية بين موضوع كل منهما، فلا يجب أن تكون الفلسفة ناقلة ومتطفلة لأنها بذلك تشوش على العلم، فليس هناك

فلسفة داخل العلم بل « الفلسفة تفكر مع العلوم، ولكن خارجها، إن الفلسفة تفكر فيما لم تفكر فيه العلوم أو فيما نسيته العلوم أو فيما لم تقدر على التفكير فيه، أو همشته، أو فيما منعت التفكير فيه أو فيما لم تفكر فيه العلوم بعد، و أخيرا فيما غطته وأخفته العلوم»[1]. إنها- الفلسفة – مدعوة لأن تساهم بجانب العلم لكن مع المحافظة على هويتها وخصوصيتها. في كتابه الأصل، يقول : « إن الفلسفة ليس لها الواجب لأن تفكر فيما تفكر فيه العلوم وبالطريقة نفسها التي تفكر فيها، إن بإمكانها أن تفعل ذلك باختيار ولكن عليها أن تعلم بوضوح أنها بذلك عبد وتقليد، متطفلة وناقلة، هناك من يفضل هذا وهناك من يرفض ذلك ... إن الفلسفة ليس من واجبها الامتيازي أن تفترق عن العلم يمكنها أن تكون كذلك حسب اختيارها، ولكن يجب أن تعلم بوضوح أنها إذن، جاهلة مؤرخة، منغلقة في مؤسساتها الخاصة، هناك من يفضل هذه المهمة التاريخية وهناك من يحزن لها »[2]. إن الموقف السيري يرفض الحديث عن الفلسفة العلمية، أو أن تصير الفلسفة علما وفي ذلك رفض صريح للفلسفات العلموية، كالوضعية المنطقية التي اتخذت منطق العلم سبيلا في بناء أطروحاتها، في مقابل تيار المثالية الذي ظل محافظا على تعالي نزعته الماورائية التي تلخص أصل الوجود في الفكر. وربما كان للتطورات العلمية والاكتشافات المتلاحقة في جميع ميادين العلم وتعزيز مكانته من خلال الهيمنة على جميع المعارف الأخرى أثر بالغ أدى إلى تعميق الاختلافات بين أنصار العلم – بالمعنى الضيق- وأنصار العلوم الأخرى المختلفة، وانعكس هذا التباين والاختلاف على علاقة الفلسفة بالعلم والتي شهدت أشكالا للصراع الذي تم فيه الحسم الابستمي بالانفصال بينهما في كثير من الأحيان. تلك هي الصورة التي رسمها سير لعلاقة الفلسفة بالعلم فماذا عن الممارسة الابستمولوجية؟

كانت الدراسة الابستمولوجية فيما سبق تمثل دراسة تمهيدية لنظرية المعرفة داخل مجال الفلسفة، وترتب عنها اتجاهات كبرى ما يجمعها هو اختلافها وتناقضها. مع ميشل سير لابد لها أن تتم خارج الفلسفة ومن دونها، وذلك بفضل تشكل نوع جديد من الابستمولوجيا المحايثة للعلم يسميها الابستمولوجيا الموجبة.

2/ الابستمولوجيا الداخلية أو الموجبة:

هي الابستمولوجيا الناشئة من داخل العلم نفسه، تتصف بصفاته من لغة وصرامة ودقة ووضوح، ويصفها بالموجبة في مقابل السالبة، لأنها تساعد على انفتاح العلم وتطوره، بما تفيده من حلحلة لمشكلاته، وتفكيك لأزماته. على النقيض تماما من الابستمولوجيا السالبة، الخارجية أو الكلاسيكية التي تتحدث عن العلم من خارج العلم وبلغة ليست علمية وتكون « الترجمة من الأولى، إلى الثانية – اللغة المشتركة – خيانة. كما أن هذا الخطاب عندما يكون في صدد الحديث عن القاعدة والأساس يتبنى اللغويات الفلسفية كركيزة. ومن ثم تحمل الابستمولوجيا في خطابها الخاص خليطا من أربعة لغات، منطقية ورياضية وفلسفية وعامية، وتعميم هذه النتيجة يجعلنا نحكم على الابستمولوجيا التقليدية بأنها خارجية »[3]إن الابستمولوجيا إذا لم تكن خطابا من داخل العلم فإنها لا تساعد على تقدمه أو تجاوز مشكلاته، وإنما تتسبب في تعثره وجموده. إن آثارها تتعارض وديناميكية العلم، وتلك هي مفارقات الابستمولوجيا التقليدية.

تجديد الخطاب الابستمولوجي يحتم علينا أن نجعل من كل حقل معرفي وعلمي فلسفة تنعكس على جهويتها الخاصة وعلمها الخاص. حيث تتم الممارسة النقدية لسيرورة المعرفة العلمية من المختصين أنفسهم لأن « العلماء أنفسهم يفكرون أفضل حول موضوعاتهم أفضل من كل الابستمولوجيين في العالم، هم أكثر إبداع على الأقل»[4]فمن اليسير على العلماء القيام بهذه المهمة لأنهم أقدر على فهم تخصصاتهم العلمية وحدودها. ثم يستورد العلم المعاصر إشكاليات الابستمولوجيا الكلاسيكية، لكن مع تفريغها من سياقها الكلاسيكي وتخليصها من صفتها الانعكاسية، لتصبح آداة تقنية خالصة، ومصورنة « إن المشكلات بقيت هي نفسها لكنها أصبحت تقنية ومصورنة ومطهرة من نسمة انعكاسيتها»[5] إن خطأ الابستمولوجيا الكلاسيكية – حسب سير – هو تجاوزها وظيفة الوصف إلى فعل الحكم والمعيارية، وهذا ما جعلها تشيخ وتصبح تقليدية، إن الفيلسوف يبقى دائما متأخرا بالنظر إلى العلوم المعاصرة – المعاصرة[*]إذ يتعين- بحسب سير دائما- على الخطاب الابستمولوجي التقليدي الاحتفاظ بمهمته كخطاب حول العلم لكن مع ضرورة تجديد موضوعه والتجديد هنا يكون بمطابقة الابستمولوجيا لموضوعها الذي أصبح جديدا وتلك مهمة يتصدر لها العلماء المختصون. فالتخصص العلمي يفترض تخصصا ابستمولوجيا "وكما أن البحث العلمي يقتضى الاختصاص كضرورة لتقدمه, فإن الابستمولوجيا من حيث هي فرع المعرفة الذي يدرس المعرفة العلمية في حاجة إلى التخصص لكي تكون تحليلاته موضوعية وفعالة " [6]

ويتخذ ميشيل سير من الرياضيات نموذجا لتوضيح أبعاد هذا المشروع، حيث يتساءل عن إمكانية امتداد الابستمولوجيا التقليدية إلى الرياضيات المعاصرة. ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال أنه يعزز مكانة الرياضيات دون العلوم الأخرى فالعلوم كلها تتفاعل داخل الموسوعة نقلا وتحويلا. بل إن الامتداد كفعل ينطبق تماما على فعل الاستيراد كمفهوم أساسي في فلسفة سير التواصلية.

إن الرياضيات المعاصرة تستورد مشكلات الابستمولوجيا التقليدية وهذه الأخيرة تفرغ من محتواها ومن إشكالياتها الأصلية التي تتمحور حول الذات العارفة التي شكلت أزمة العقلانية العلمية المعاصرة، ويتحول النقاش داخل العلم الرياضي بين الرياضيين أنفسهم، وهو حوار بين القدامى والجدد . في حين تبقى الابستمولوجيا خارج الحوار تحافظ على بنيتها التقليدية « إذن ليس هناك تطور فعلي، واكتشاف حقيقي غير هذه المشاجرات المتواصلة بين قدماء ومعاصرين، والتي تنفي بعمق إتصالية التراكمات الصغيرة لمتوالية جزئية من النتائج المستنبطة، هكذا فإننا نقلب النظام ونعيد رسم وجه ما، إننا نتكلم لغة جديدة، ففيما يتعلق بنا يستحسن أن نضع قاموسا مقارنا يميز بين اللهجة الكلاسيكية واللغة المعاصرة »[7]. وتقتضي هذه الممارسة الابستمولوجية وجود قاموس علمي، والذي يقترحه سير، كأداة للمقارنة والتمييز بين العدة المفاهيمة للعلم الكلاسيكي ومفاهيم العلم المعاصر، لأن المعرفة في نظره تتطور وتتقدم نحو الأحسن. وكلما كان هناك تقدم في العلم كانت الحاجة إلى استظهار هذا القاموس المقارن، فإذا كانت الرياضيات الكلاسيكية « تتعامل مع مواضيع محددة كالعدد مثلا، في حين أن الرياضيات المعاصرة تسعى نحو تعميمات عرضانية وارتدادية مع إقصائها لتحديدات الموضوعية، وبمجالات لم تعد محددة بعناصرها الموضوعية ولكنها محددة بقوانين خاصة»[8] بمعنى أنه تم الانتقال من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى من التجريد وهذا يترافق مع تقدم آخر في التعميم وتتحول الثوابت إلى متغيرات، ويتمكن الفكر من معالجة قضاياه بدقة ووضوح. ويتجلى الفرق واضحا بين المنهجية الرياضية الكلاسيكية والمنهجية الأكسيومية المعاصرة. ففي كل لحظة إعادة بناء النسق يتحول الرياضيون وجوبا إلى ابستمولوجيين لمعرفتهم الخاصة وهنا تبرز محايثة الابستمولوجيا للعلم المعاصر لها.

إن الرياضيات المعاصرة أفرزت خطابا حول نفسها، تكون فيه موضوعا لخطابها الخاص، بطريقة صارمة وتعميمية ولذلك تتأسس كابستمولوجيا موجبة تتفرد بخصائص أهمها:

أولا: هي ابستمولوجيا داخلية (interieure) متولدة عن طبيعة الموضوع الذي تتحدث عنه، فهي تنبجس من داخل العلم ذاته، لا من خارجه، لغتها تستعمل لغته نفسها، برموزها ومفاهيمها، أو لنقل إنها علم العلم « فإن علم العلم يعني نسخا لهذا على نفسه، لأنه شبه انعكاسي، وليس افتراق خطاب عن موضوعه إنه إعلاء داخلي وانعكاسية جهوية »[9] فالرياضي دون سواه ينعكس بخطابه على علمه واصفا، ناقدا، ومؤسسا، لمناهجه ومواضيعه وشروطهما. فهو الذي يتحكم في خطابه ويعمل على تقدمه وترقيته. ويعبر ميشيل سير عن تلك الخاصية بالتشكل التقدمي للابستمولوجيا داخل العلم.

ثانيا: صارمة (rigoureuse)، فهي تستمد دقتها وصرامتها من الرياضيات ذاتها « إن هذا النسخ أو الانعكاس للرياضيات على نفسها يسمح بإكثار مستويات التجريد والسذاجة وتحليلها وجعلها مفاهيما نسبية، وإن كانت تبدو ثابتة »[10] إنها تتحدث عن نفسها بصرامة متناهية. لذلك تتجه الرياضيات المعاصرة، نحو درجة أعلى من التجريد والتعميم. فالمفهوم الرياضي، لا ينطبق على شيء واحد بعينه، بل على أشياء كثيرة ومتنوعة تجمعها خاصية مشتركة. وتقوم النظرية المجردة باستخلاص نتائج من هذه الخاصية، يمكن تطبيقها على أي من تلك الأشياء المتنوعة. ويرافقُ ميل الرياضيات المعاصرة نحو قدر أكبر من العمومية، وهي المتطلبات اللازمة لتحقيق الدقة والسلامة المنطقية.

وهي تعميمية أو معممة (généralisé). بمعنى أن هذه الابستمولوجيا تمتد لتشمل الموضوع والمنهج معا. أي البحث في منهج العلم ، وفرضياته ومفاهيمه ، موضوعه وحدوده، والوسائل التي يستخدمها .

يتبين لنا أن ابستمولوجيا الرياضيات هي رياضيات الرياضيات (méta-mathématique)، حيث ينعكس العلم على نفسه« إن المهمة الوصفية التقليدية للابستمولوجيا الكلاسيكية قد امتصها هذا الوصف الصارم »[11] فبعد أن تعمم هذه الابستمولوجيا في الرياضيات تسند إليها جميع مهام الابستمولوجيا التقليدية .إن الرياضيات المعاصرة تنغلق على نفسها، وتتبنى خطابا من جنس خطابها فتصبح عندئذ ممثلة لابستمولوجيا داخلية. ولأنها تساعد على انفتاح العلم بإعادة بنائه وحل مشكلاته وتجاوز أزماته يصفها سير بأنها ابستمولوجيا موجبة. وننوه بأن التحليل السيري وإن تناول الرياضيات كنموذج للتحليل فإنه يشمل جميع العلوم من دون استثناء، إذ نجده في مواضع أخرى يتخذ الفيزياء نموذجا وهكذا.

ويمكن القول مع سير إن الابستمولوجيا في ثوبها الجديد قد تخلت وبلا رجعة عن المهمة المعيارية والنقدية التي ميزت الخطاب الابستمولوجي التقليدي اتجاه العلوم. والذي تمثل أساسا في المشكل الفلسفي للحقيقة وبناء نظرية في المعرفة، وغدت أسئلة إمكان المعرفة من عدمها وهل تتم بواسطة العقل أم بالتجربة، أسئلة تقليدية لا تجد لها مكانا ضمن النطاق الابستمولوجي المعاصر. إن مهام الابستمولوجيا الموجبة لا تعدو أن تكون مهمة وصفية « وهكذا فإنه من الجوهري أن تصبح فلسفة العلوم، فلسفة تاريخ العلوم، أو تأريخها للعلوم، أو أيضا تاريخ فلسفة العلوم، إن من الجوهري أن تصب في التاريخانية»[12]فهي إما وصف تاريخي أو تطوري وإما وصف آني تزامني.

أما عن موضوع الابستمولوجيا الموجبة يقول سير « إنني أتبنى كأطروحة أن موضوع الابستمولوجيا هو مجهول العلم ربما أكثر من العلم نفسه إذا كانت على الأقل ترفض أن تبقى نسخة خالصة للابستمولوجيا الجهوية، التي – كما سنرى – يمارسها كل علم منذ الآن على نفسه»[13]إن موسوعة المعرفة[*]كما يتصورها سير تتضمن في جميع قممها على مجهول ما تغطيه المعرفة، فداخل المعرفة توجد لا معرفة، وبذلك نقول إن موضوع الابستمولوجيا البحث في مجهول العلم باعتباره علما داخل الانسيكلوبيديا. وتفرض هذه الأخيرة – الانسيكلوبيديا – على الابستمولوجي أن يعبر ويتحرك وسط المعارف، ويصبح في وضع لا متمركز وغير ثابت، هنا – هناك وفي كل مكان وهو وضع تفرضه طبيعة العلوم المعاصرة. وبالإضافة إلى انعكاس كل علم على نفسه، فإنه ينفتح على العلوم الأخرى عبر عمليات النقل والتحويل والتفاعل.

إن الابستمولوجيا لا تبقى في نطاق جهويتها الضيقة لأن المشروع السيري يريد تأسيس حقيقة علمية ضمن نطاق الموسوعية التي تتجاوز النزوع التخصصي في العلم عبر فعل التواصل بين التخصصات العلمية « هناك بالطبع ابستمولوجيا جهوية، ولكن الابستمولوجيا النسبية وحدها تخلص إلى إطلاقية الحقيقة العلمية بشكل عام، حقيقة مابين – مرجعية في كل موضع »[14]إن العلم يريد توليفا بين حقيقتين، حقيقة جهوية، مرجعيتها جهويتها ونسقها الداخلي، وحقيقة شاملة مستقلة عن كل مرجعية خارج الأنسيكلوبيديا. فلابد على كل عالم أن يساءل نفسه عن التخصص الذي يختص فيه، ووظيفته وعلاقته بالتخصصات الأخرى.

وجدير بالذكر أن ميشل سير واحد من فلاسفة التعدد والاختلاف، وهو التيار الذي يدعو إلى فكر لا يمكنه إلا أن يكون مختلفا ومخالفا وليس واحديا، لذلك يقر بتعددية الجهويات العلمية. لكن هل بتعددها يتعدد الخطاب الابستمولوجي ؟ وهل نتحدث عن ابستمولوجيات متفرقة ولا وجود لخيط ناظم لها؟ من المؤكد أن كل جهوية علمية هي إبستمولوجيا منعكسة على مجالها الخاص، لكن انغلاقها على نفسها لا يترتب عنه انغلاقها على غيرها من الجهويات العلمية، بمعنى أنها منغلقة من جهة ومنفتحة من جهة أخري، فهي منغلقة داخل مجالها الخاص، على اعتبار كل علم يشتغل على قضاياه الخاصة، ومنفتحة على باقي العلوم، والانفتاح يكون تواصلا أو تفاعلا عبر فعل النقل والتصدير « إنها إذن ابستمولوجيا جهوية مرتين: لنفسها حسب النسخ والانغلاق، وللعلم على العموم انطلاقا من نفسها وداخل لغتها الخاصة حسب الترابط والانفتاح »[15] فلكل علم مجاله الخاص وحقيقته المستقلة وبالتالي يمتلك خطابا يعكس علاقاته الداخلية وفي الوقت نفسه ينفتح على باقي الجهويات العلمية. فكل علم هو علم العلوم.

إن من مهام الابستمولوجيا المعاصرة هو البحث في الجهويات العلمية، في تداخلها وتأمل تفاعلها، حيث تتمكن من قياس هذه الجهويات ووضع الحدود، ووصف عمليات التبادل داخل الموسوعة علما أن الابستمولوجيا هنا تتصف بخصائص العلم من دقة وصرامة وتعميم .

إن الحديث عن التواصل بين العلوم والنظريات، والذي يأخذ معان متعدد عند سير، التفاعل الترجمة، النقل، الاستيراد التبادل، يقودنا إلى الحديث عن الجهويات العلمية وما يتأسس بينها من علاقات وتفاعلات، ليس فقط بين حقل علمي وآخر بل حتى داخل الحقل الواحد كالبيولوجيا والرياضيات والفيزياء « منذ وجود علوم تتوزع جيدا وتنفصل بعناية، كيف تريدون أن نتخيل العلاقة بين التاريخ العام وتاريخ التخصصات إنه لا يوجد علاقة بين الحقول الخاصة للمعرفة »[16]إن التواصل والتفاعل بين التخصصات حقيقة لا يمكن إغفالها في كل دراسة ابستمولوجية وتاريخية جادة للعلم. ويقصد بالجهويات العلمية تلك الفروع العلمية الجزئية القديمة والناشئة التي تلغي المفهوم العام للعلم، أي فكرة العلم بألف التعريف مثلما كان يرى العلماء. لكن إذا كان سير يؤمن بالتواصل بين الجهويات العلمية فكيف يتم هذا التواصل ؟

إن الاتصال بين الجهويات العلمية أو تفاعل التخصصات العلمية تتم انطلاقا من فعل النقل أي نقل المفاهيم والمناهج من مجال معرفي إلى مجال معرفي آخر إن فعل النقل هو تلخيص لعمليتي التصدير والاستيراد التي تتم بين الجهويات فيما بينها، فبين الفروع والتخصصات العلمية

علاقات منهجية ومفهومية تؤسس لفعل النقل والترجمة والاتصال كما يصفها سير « فلا يوجد علم متفرد من دون علاقات مع باقي العلوم سواء عبر عملية النقل أو التبادل، أو عبر الازدواج والاجتماع بعلوم أخرى، مما يسمح بالحديث عن وحدة علمية أو انسيكلوبيديا كما يفضل أن يسميها م.سير »[17]إن المفاهيم التي تحدد علاقات العلوم هي استيراد وتصدير نقل وتحويل وتبادل للمفاهيم والمناهج. ويسمي م.سير هذه العلاقات وخواصها بالمكان المتعالي (TRANSCENDANTAL) بمجال العلم، ليصبح كل مجال علمي جهوية من هذا المكان « مهما يكن في هذه الغائية، فإن التبادل هو قاعدة، وإن لم تكن شاملة : استيراد وتصدير تعلن في نظري نهاية عصر المتخصصين، إن المجتمع العلمي هو منذ الآن متعدد اللغات، فكلما اتجهنا نحو البيداغوجي والإبلاغ، سرنا نحو الاختصاص: الإطار السوسيوسياسي، المكان الإيكولوجي وكلما اتجهنا نحو الاختراع إلتقينا بالتبادل والترجمة »[18] فلا وجود لـ"البيولوجيا" بألف التعريف مثلا، بل هناك علوم بيولوجية قطاعية تتواصل معرفيا بين جهوياتها الداخلية، حيث إن نظام المعارف ووضعها ليس نظاما أو وضعا هرميا من الأعلى إلى الأدنى كما تصوره كونت في تصنيفه للعلوم، بل هو حسب تشبيه ميشيل سير أشبه بشبكة طرقية يصبح فيها "سيلان المعارف" متموجا في عدة اتجاهات. إن تاريخ العلوم ليس أحاديا، وليس خطيا في توجهات معارفه بل هو: «شبكة تتدفق منها عدة طرق متعددة ومعقدة، وتتشابك فيها عدة تبادلات، وتتقاطع فيها عدة تمفصلات، كقمم ومنعطفات، إنها تشعب لطريقين أو أكثر »[19]. فالمستقبل العلمي يتجه نحو الفروع العلمية المتداخلة باعتبارها أحد مصادر المعرفة الجديدة، بل إن التقدم التكنولوجي لم يعد مقيدا بحدود فروع التخصصات بقدر ما يأتي من حقول مختلفة. وراهينية التساؤل تتمحور حول « إذا كان هذا الترتيب الصارم الحالي للاختصاصات يمكن أن يستمر لمدة طويلة، مع ازدهار المهمات التي كانت تغذي التوجه نحو تكامل الفروع، بدأت تتهدم الحدود بين الاختصاصات المختلفة. إنهم، أي الاختصاصيون، يخسرون تدريجيا أهميتهم السابقة إزاء هبوط الستارة الخلفية للنظام التقليدي للعلوم »[20]فهناك تطلع إلى ضروب من التوحيد لمواجهة التشظي التخصصي في العلوم. وقد سلك البورباكيون(*)مسلكا يهدف إلى تجميع الفروع الرياضية ضمن كيان لا يتعدد إلا في بنيات رئيسية مهيمنة وانتهى بهم التحليل إلى « التوصل إلى ثلاث بنيات مستقلة لا يمكن رد إحداها إلى الأخرى وبإجراء عدة تمييزات داخل كل واحدة من هذه البنيات، أو بضم بنيتين أو أكثر، أمكن تعميم البنيات الأخريات. ولهذا السبب أطلق على هذه البنيات إسم البنيات الأصلية »[21].

3/ الابستمولوجيا التواصلية:

إن الابستمولوجيا الموجبة أو المتخصصة لا تلغي دور وأهمية فلسفة العلوم بل إنها تتحول إلى ابستمولوجيا عامة أو ما يمكن تسميته بالابستمولوجيا التواصلية، والتي تضطلع بمهام جديدة تنظر في العلاقات الممكنة بين الابستمولوجيات الفرعية. بمعنى أنها تبحث في جسور التواصل الممكنة والتقاطعات القائمة فيما بينها. فإذ كانت مهام الابستمولوجيا الموجبة أو العلمية كما نظّر لها سير، علمية صارمة تتم من داخل العلم وبلغة العلم فإن الابستمولوجيا في مستوى آخر « عليها أن تكون إبستمولوجيا عامة للابستمولوجيات الموجبة الجهوية، هذه هي مهمة الفلسفة المعاصرة للعلوم»[22] فلسفة العلوم إذن تشتغل ضمن نطاق إبستمولوجيا عامة وشاملة، ومهامها الأساسية تأمل نتائج الابستمولوجيات الموجبة والتجول عبرها لرصد انتقال المشكلات من علم لآخر انطلاقا مما تستمده وتحصله منها، فإذا كانت الابستمولوجيا الموجبة خطابا دقيقا وصارما حول العلم فإن فلسفة العلوم هي خطاب حول خطاب الابستمولوجيا وليس خطابا مباشرا حول العلم فوظيفة فلسفة العلوم لا تسمح لها أن تتحدث عن العلم مباشرة من داخله أو في كليته. وبهذا المعنى تصبح فلسفة العلوم بمثابة ابستمولوجيا خارجية، تتحدث عن العلم من خارجه، ويتوسط بينها وبين العلم خطاب ابستمولوجي داخلي علمي وصارم. ونقف هنا على تجديد جوهري تميز به ميشال سير عن سابقيه وبالأخص باشلار الذي جعل من الابستمولوجيا خطابا جهويا بالضرورة فهي خاصة بكل علم حيث تنطبع الدراسة الابستمولوجية بالجهوية أو الإقليمية، لكن ما ذهل عنه باشلار– حسب سير– أن تخوم العلوم ليست منعزلة بل تتبادل المفاهيم والمصطلحات، فهناك نقل وتبادل، تصدير واستيراد. و « لايوجد العلم الجهوي مستقلا، بل في علاقات متعددة ومتنوعة مع باقي العلوم، لأن كل علم يحيل على عدد آخر من العلوم، وهو بالتالي مرجعية بالنسبة إلى هذه العلوم في الآن ذاته، وذلك بطريقة تجعل فهمها ينحصر في هذه اللعبة المعقدة "للمُرجَع" و"المرجع"، والتي ليست في الحقيقة سوى لعبة التفاعل »[23] إن العلم يعيش عصر سيلان المجالات العلمية والتفاعلات المتواصلة.

إن التجديد الابستمولوجي عند ميشال سير يحمل في طياته فلسفة المتعدد والمختلف، وفي الوقت نفسه هو فلسفة للتواصل والتفاعل، لذلك يعتبره بمثابة فكر علمي جديد متجدد nouveau nouvel esprit scientifique)(يحاول البحث عن مفاصل التقارب بين مختلف التخصصات و حقول المعرفة العلمية في فضاء معرفي يتسم باللا نظام واللا تراتبية إنها الموسوعة العلمية حيث « يرافق التراكم مولد الموسوعة الجديدة، وسعادة العلوم هي اللا نظام »[24]إن الفضاء الموسوعي نتيجة حتمية للنقل والتبادل بين العلوم، تفرض نفسها كلوحة تلخيصية تعكس حصيلة للعلوم لكن بدون مرجعية ثابتة.

وصفوة القول إن التوجه الابستمولوجي التجديدي عند ميشال سير هو محاولة لتجاوز الابستمولوجيات السابقة عنها، تنطلق من التأسيس لابستمولوجيا علمية، تتم داخل العلم ومتحررة من أصولها الفلسفية، وأخرى فلسفية خارجية قوامها البحث في العلاقات القائمة والممكنة بين الابستمولوجيات العلمية، حيث تتوسط هذه الأخيرة بين خطاب العلم وخطاب الفلسفة. أي أنها ليست قولا مباشرا حول العلم، وإنما هي خطاب حول خطاب الابستمولوجيات العلمية. وبهذه الصورة تكون للفلسفة كينونة داخل عصرها العلمي بدون أن تكون مشوشة أو متطفلة.

الهوامش

*ميشال سير فيلسوف ومؤرخ علوم فرنسي، معاصر (1930) منشغل بالتواصل منذ بدايات مشروعه الفلسفي. له انتاج فلسفي غزير، من أشهر أعماله: سلسلة هرمس في خمسة أجزاء، العقد الطبيعي، وآخر ماصدر له الأصبع الصغيرة petite poussette() سنة 2012 والذي يعلن فيه تفاؤله بالفلسفة والعلم والتكنولوجيا .

**يتفرد ميشال سير في أسلوب الكتابة الفلسفية وفي التعبير عن مصطلحاته الأصيلة، فعندما يتحدث عن العلوم المعاصرة مثلا يصفها بالمعاصرة – المعاصرة تمييزا لها عن غيرها بما تشتمل عليه من تجديد وإضافة.

1. تيبس، يوسف، التصورات العلمية للعالم: قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصرة، دار الروافد الثقافية، لبنان، 2014 ، ط 1 ص: 338
2. serres michel , Genèse, Grasset Paris,1982,p:169
3. مرجع سابق، ص 396، 397
4. serres michel, éclaircissements, cinq entretiens avec Bruno Latour, édition francois bourin, paris, 1992, p: 48
5. 75serres michel, la communication, minuit, paris, p:
6. وصف ينسبه ميشيل سير للعلوم المعاصرة وللتطورات المتلاحقة والسريعة التي تشهدها.
7. وقيدي, محمد, نحو ابستمولوجيا جهوية, مجلة الثقافة المغربية, العدد السادس, المناهل للطباعة والنشر, المغرب، 1992
8. p:7ibid,
تيبس، يوسف، تاريخ و فلسفة العلوم عند ميشيل سير، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 30، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،2002،الكويت، ص 204
9. 65ibid, p:
10. مرجع سابق، ص205
11. ibid, p:
12. ibid, p:
13. ibid, p:23

موسوعة المعرفة أو الانسيكلوبيديا تمثل مشروعا علميا يسعى "ميشيل سير" إلى تحقيقه. وما تبنيه للفكر الشبكي إلا تحقيقا لهذا الغرض الذي يستهدف مجموع المعارف العلمية. فالموسوعة بالمنظور السيري تتضمن مجموع العلوم التي تترابط فيما بينها تفاعلا وتبادلا، إستيرادا وتصديرا، للمناهج والمفاهيم والمصطلحات فهي علاقات عابرة للجهويات تتجاوز الثنائيات الفلسفية كالمجرد والمحسوس العقلاني والواقعي...الخ

14. 157ibid, p:
15. :11Serres Michel . l interference, les editions de minuit, collection critique, paris, 1992, p
16. 18ibid, p:
17. مرجع سابق، ص171
18. M.Serres, l interference, p: 27
19. M.Serres, Préface, Eléments d'histoire des sciences, collectif, sous la direction de Serres, [1]Ed.Bordas culture, Paris, 1989, p5
20. ملحم، جهاد، الفيزياء وقضايا العصر، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سوريا، 2012، ص 291

بورباكي إسم إغريقي استعارته جماعة من الرياضيين الشباب للتستر وراءه، ويتكون الفريق من حوالي عشرين رياضيا، جلهم فرنسيون، ويستقيل كل عضو من الجماعة إذا تجاوز خمسين سنة حيث يتجدد أعضاء الفريق بالانتخاب لاعتقادهم أنه قلما نجد نظرية رياضية جميلة يكتشفها صاحبها و هو في سن الستين. وهدف الفريق هو إعادة كتابة الرياضيات على أسس صلبة بعدما كثر التخصص وتشعبت مسالك العلوم الرياضية . ومن أبرز البورباكيين : جون دالزرت، أندري فاي، جون ديودوني، و كلود شوفالييه.

21. بياجيه، جان، الإبستمولوجيا التكوينية، تر: السيد نفادي، دار التكوين، دمشق، 2004، ص55
22. serres michel, la communication, p 76
23. تيبس، يوسف، التصورات العلمية للعالم: قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصرة، مرجع سابق، ص: 356
24. serres michel, l interference, p: 20